

القصبات في منطقة القورارة مفهومها وإشكالية وظيفتها

د. بن عبد الله نور الدين (جامعة الجلفة)

Abstract:

Casbah or "Old Medina" is considered as an architectural form that had spread in North Africa. It is also a model of traditional architecture, yet it is qualified as a defensive architecture, which raises a problematic in its concept and function. In this paper I tried to answer the question in relation with the region of Gourara (province Touat).

We conclude that it was the first nucleus of construction in those areas, and it was arranged to be used in case of necessity, which gives a defensive characteristic.

مقدمة:

تعد القصبات من أهم العناصر المعمارية في منطقة الصحراء خاصة إقليم توات منها، فقد حظيت باهتمام العديد من الدارسين الغربيين، كما كثر الحديث حول جدوى وجودها ووظيفتها، أكان ذلك لأسباب دفاعية؟، أم لأسباب اقتصادية؟ إذ يذهب جل من درسوها إلى القول أن القصة في قصور الجنوب، هي عبارة عن مخازن جماعية لسكان القصر، خاصة في منطقة القورارة، أما في منطقة توات الوسطى فهي سكن عائلة أو مجموعة من العائلات تربطها علاقة قرابة.

إلا أن النمط المعماري الذي بنيت به القصبات، يجعلنا نحتمل أن وظيفتها لم تكن للتخزين فقط فشكلها الحصين (أبراجها وخنادقها وأسوارها، إضافة إلى اختيار المواقع المرتفعة لبنائها)، يجعلنا نحتمل أنها قد تكون النواة الأولى لعمران القصر خاصة وأنها تحتوي على كل المرافق الضرورية لحياة الناس؛ أو أنها من العمائر الدفاعية لتلك المناطق. ولهذه الأسباب كانت ورقتنا البحثية من أجل استجلاء ما أغمض من أسرار القصبات.

1. مفهوم القصبه:

القصبه في اللغة تعني جوف القصر، وقصبه البلد مدينته، وقيل معظمه، والقصبه جوف الحصن، يبنى فيه بناء هو أوسطه، وقصبه القرية وسطها¹. وهذا التعريف ينطبق على عمارتها.

أما اصطلاحا فالقصبه هي بناية كبيرة تتخذ في الغالب شكلا مربعا، كما تتشكل من عدة طوابق يخصص الأرضي منها للبهائم والدواب، أما البقية فهي للسكن وبقية الشؤون المعيشية الأخرى؛ كما تتميز القصبات بارتفاع نسبي في أركانها الأربعة، فيما يشبه غرضا مستقلة (الأبراج)، والقصبه قد تكون مشتركة بين عائلتين أو أكثر مع وجود باب خارجي وحيد، كما أنها تشيد في الغالب من مزيج من الطوب والحجارة، وتطلى بعد ذلك بالطين، حيث يراعى في بنائها المتانة والجودة، مما يمكنها من الصمود لدهور عديدة؛ وهي بهذا تأخذ شكل البناء الحربي².

أما بداياتها فيرى Henri Terrasse، أنها ترجع الى الأصل الروماني³، ويرجعها البعض إلى الأصول المشرقية، العراقية والمصرية⁴.

والقصبه في المناطق الشمالية من الجزائر هي المدينة القديمة بعمرانها وعمارتها ومرافقها، والمحاطة بالأسوار التي تتخللها أبواب معلومة، على غرار قصبه الجزائر، وبجاية، وغيرها.

2. القصبه في القورارة:

إذا كانت القصبه هي المدينة القديمة كما في المدن الشمالية، فيختلف الأمر، في المنطقة، فهي تارة سكن عائلة، أو مجموعة من العائلات المتصلة بصلاة الدم، كما في منطقة توات الوسطى، وهي كذلك المخزن الجماعي لكافة أهالي القصر، وهو ما نلاحظه في منطقة القورارة، والجدير بالذكر أن القصبه تزود بكل العناصر الدفاعية، إضافة إلى المرافق الأخرى (بعض البيوت، المسجد، والبئر).

غير أن هذه الوضعية تطرح عدة أسئلة أهمها لماذا تمت تهيئة القصبات بكل تلك المرافق؟ حتى أضحت عبارة عن حصون حصينة، أكان ذلك كله بسبب خشية الأهالي على محصولهم، أم هو الاستعداد لأي طارئ قد يفاجئهم؟

والجدير بالذكر أن مصطلح القصر قد يطلق على القصبه، في هاته المنطقة (القورارة)

ومعنى هذا أن القصر يساوي القصبة، والقصبة تساوي القصر، الشيء الذي يجعلنا نحتمل أن هذا الازدواج في المصطلح مرده إلى أن القصبة هي النواة الأولى للعمارة، بمعنى أن الأهالي سكنوا القصبة في بداية الأمر، ولما تزايد عددهم صار لازماً عليهم الانتقال من اجتماع اقل إلى اجتماع أوسع، مما أفرز عمران القصر بالشكل الحالي.

وبالتمعن في شكل القصبة، نقف على حقيقة مفادها أنها بنيت لأسباب أمنية محضة، وهو ما يمكن استنتاجه من خلال النزاعات التي شهدتها المنطقة، مما جعل الخوف يسيطر على أهاليها وهو ما ظهر في شكل عمائرهم، ذلك لأن الغاية من العمارة هي توفير الحماية الكافية لسكانها.

ولهذا فنحن نميل إلى القول أن القصبة كنموذج معماري هي أقدم من القصر، ونظراً لتزايد عدد السكان وضرورة الانتقال من اجتماع ناقص إلى اجتماع كامل، وبانعدام عوامل الخطر التي كانت تهدد السكان خرجوا من هاته العمائر ليعمروا بجانبها وبالقرب من بساينهم، فاتسع بذلك العمران وكثرت المباني.

ومهما يكن فقد حظيت القصبة باهتمام الكثيرين، ومنهم (بييترو لورو) حيث قال: (...إن البربر المنحدرون من شعوب فترة العصر الحديث والتي توجهت نحو السفانا الجنوبية بسبب التصحر الذي حل بمناطقها وكونت أكبر سلسلة من القرى الحجرية الدائرية الشكل الواقعة بين حوض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، هاته القرى الواقعة على مرتفعات معزولة تحمل صفة القرى الدفاعية فالأجزاء المبنية في الأعلى محصنة بالحجارة ومنظمة في شكل حجرات صغيرة بشكل مخازن)⁵، أما (ر-كابوراي) في مؤلفه

(greniers domestiques et greniers fortifiés au Sahara le ca du Gourara):

فيقول: (يتم الاحتفاظ بالمحصول الزراعي في الصحراء إما في مطمورات أرضية أو في حجرات داخل المنازل، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للقورارة فهي المناطق الوحيدة التي بها مخازن محصنة كالقلاع تسمى (القصبة) وهي تشبه القلعة في أغادير)⁶.

وقد أشار في نفس المقال إلى ظاهرة وضع المحاصيل الزراعية في قلاع شديدة التحصين (تعرف بالقصبات) وهي من مميزات منطقة القورارة⁷. وعلى هذا الأساس تكون القصبة حسبه هي:

مخازن القصر = $\sum$ القصبة

كما يضيف أن معظم سكان القورارة يستعملون كلمة قصبة للدلالة على القصر أي أن:

$$\text{القصبة} = \text{القصر}$$

ويضيف أن هذا الاستعمال يطابق ما يعرف في الجنوب التونسي بالغرف

$$\text{(الغرف) الجنوب التونسي} = \sum \text{القصبة} = \text{القصر}$$

وعندما تحدث عن قصبة بني مهلال، قال أنها توجد داخل القصر، وهو ما ثبت لنا من خلال الزيارات الميدانية للمواقع.

$$\text{القصر} \supset \text{القصبة}$$

أما (إيشالييه) في معرض حديثه عن عمارة الصحراء، (توات - القورارة - المنيعية) قال: (إن) جل قصور القورارة بنيت فوق تلال صخرية، وقد بنيت بالحجارة، أو مزيج من الحجارة والطين، إضافة إلى شكل السور الدائري، أو الشبه الدائري. وبخصوص شكل السور (الدائري) يقول أنه محلي النشأة أو بربري، وذلك لسهولة إنشاء الشكل الدائري الذي لا يعتمد على الزوايا)⁸، وهذا راجع بطبيعة الحال حسب نفس الكاتب لعدم خبرة البنّاءون في هذا المجال.

ومع هذا كله فالفرنسي (مارتان) يرى أن طريقة تخزين المحصول في قلاع حصينة خاصة بالبربر، وبما أن منطقة القورارة منطقة بربرية، فكان لزاما وجود هذا النوع من المخازن المحصنة.

و يورد كدليل على صحة فرضيته وجود القصبة في منطقتين متجاورتين (توات، القورارة)، واحدة سكانها من العرب، والثانية من البربر، وهو ما أدى إلى اختلاف وظيفة القصبة فيهما.

ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقول أن القصر في منطقة القورارة هو سكن جميع طبقات المجتمع، (فقراء وأغنياء)، بينما تستعمل القصبة لحفظ المحصول، أما في منطقة توات فالأمر مختلف، ذلك لأن القصبة هي ملك لعائلة ميسورة الحالة، أو تعود ملكيتها إلى مجموعة من العائلات تربط بينها قرابة النسب، أما القصر فتسكنه الطبقات الدنيا في المجتمع (فقراء، عبيد...)⁹.

وعلى هذا الأساس يكون وجود نمط المخازن المحصنة له علاقة بالبربر؛ إلا أنه نسي أن قصور تيلكوزة في منطقة القورارة على سبيل المثال تسكنها قبائل عربية، ومع ذلك نجد فيها نفس القصبات المحصنة ولنفس الغرض، وإذا سلمنا بهذا الافتراض لكان من الممكن وجود نفس الوسيلة للتخزين عند قبائل بربرية أخرى (بنو ميزاب، الطوارق).



إلا أن (كابوراي) يرى أن وجود هذا النمط من المخازن المحصنة في منطقة القورارة يعود في غالب الأحيان إلى محاولة وضع المحصول في معزل عن النهب والسرقة، وبما أن هذه المنطقة توجد بمحاذاة القبائل العربية في الشمال والبربرية (العبيدين) في المغرب، وهو ما يجعلها عرضة للسرقة والاعتداء¹⁰. وما يدعم هذا الرأي هو احتفاظ ذاكرة الأهالي للعديد من الذكريات السيئة، عن تحرش المغاربة بالمنطقة إلى نهاية القرن 19م (علما أن تلك المخازن تتميز بصغر مداخلها وهو ما يطرح إشكالية جدوى هذا الصغر).

ومع كل هذا نرى أنه من الممكن أن يكون السبب الأساسي في وجود هاته الظاهرة المعمارية راجع للغرض التجاري، ذلك كون المنطقة اعتبرت همزة وصل في طريق التجارة العابرة للصحراء في العصر الوسيط، فجاءت القصبة لحفظ المحاصيل الموجهة للتصدير، أو المبادلات التجارية؛ وبهذا يوجه الفائض عن حاجة الناس للمقايضة في الأشهر التي تلي موسم الحصاد¹¹.

وعلى هذا الأساس تكون القصبة في منطقة القورارة، عبارة عن مستودعات للسلع الموجهة للتصدير أو المبادلة التجارية.

وعلى افتراض صحة كل ما ورد من أراء هؤلاء الدارسين، فما جدوى وجود المساكن، والبر والمسجد في تلك القصبات؟، فهذه العناصر تمكننا من افتراض أن القصبات سكنت، أو أعدت لتسكن في حالة معينة، وكلاهما له جانب من الصحة، فالقول بأن القصبات في القورارة سكنت

من قبل يعني أنها هي أول العماثر في تلك المناطق، حيث أن أول من عمر تلك المناطق شيدها لتوفر له الأمان والحماية، فجاءت في شكل قلاع محصنة.

والدليل ما أورده ابن خلدون أثناء حديثه عن من سكن القصور التي اختطتها زناته في الصحراء ومنها قصور السوس غربا ثم توات... ثم تيقورارين شرقا؛ وهذا دليل على أن من شيد تلك العماثر في القفر هم قبائل زناته، كما أن مناطق توات هي مواطن بنو يالديس من مغراوة¹².

وعلى اعتبار أن منطقة القورارة تقع على طريق الذهب، فطبيعي أن تلقى اهتمام من قبل الدويلات التي قامت في المغرب الإسلامي، محاولة منهم السيطرة على طريق الذهب، ولهذا سعى الفاطميون إلى الاستيلاء على تاهرت سجلماصة، اللتان كانتا سوقين كبيرتين، تتحكمان في المحورين التجاريين الشرقي والصحراوي¹³.

كما أن الرأي القائل، بأنها عبارة عن مستودعات السلع الموجهة للتصدير، يرجح فرضية، أن تلك القصبات عبارة عن فنادق، عدت للتجار في طريق ذهابهم وإيابهم، وقد يؤيد هذا الطرح، الوظائف التي أفرزتها الحركة التجارية في تلك المناطق، حيث كان من الأهالي أدلاء الطريق، الذين استعان بهم التجار في شق تلك القفار الصحراوية.

أما الرأي الآخر فهو أن تكون القصبات أماكن يلجأ إليه الأهالي عند أي خطر يهددهم، فذلك له جانب من الصحة، بالنظر إلى ما قلناه آنفا، بأن المنطقة كانت محل نزاع بين جميع الدويلات، التي قامت في المغرب الإسلامي كونها تقع على طريق الذهب، مما يجعل أهلها معرضون للخطر باستمرار.

إضافة إلى أن وجود عدد من القبائل والإثنيات (عرب، بربر، يهود...)، في منطقة واحدة، ولد بينهم العديد من الصراعات، في محاولة السيطرة على المكان، وهو ما يعرف بمبدأ التدافع.

ومن هذا نستنتج أن حياة الناس كانت بين الكر والفر، مما حتم عليهم تشييد حصونا تقيهم من كل هجوم، فقد ذكر ابن خلدون أن سكان هاته القصور من زناته وقد كانت بينهم حروب وفتن على رئاستها¹⁴، ويدعم هذا الرأي قول أحد المؤرخين المحليين بأن العداوة التي سادت بين هؤلاء القوم هي عداوة الشيطانية¹⁵.

والملاحظ في قصبات منطقة القورارة، أنها جاءت في غالب الأحيان، دائرية الشكل أو شبه مربعة، كما أن عدد بيوتها قليل جداً، إذ لا يتعدى العشرون بيتاً، مما يعطينا صورة جلية عن كثافة سكان القصبة، وهو ما يدعم فرضية كونها (القصبة) النواة الأولى لإعمار تلك المناطق، ولما كثرت الكثافة السكانية اضطر السكان للانتقال إلى فضاء أوسع يستوعب اجتماعهم.

كما أن هاته القصبات جهزت بكل عناصر العمارة الدفاعية؛ إضافة إلى هذا يلاحظ وجود عدد من المغارات الكبيرة، تحت كل قصبة من قصبات القورارة، وهي مغارات مهيأة في الصخرة التي تم البناء عليها، قيل أنها كانت في القديم تملأ بالماء، ثم تسد مداخلها بالحجارة لكي تفتح عن أي هجوم خارجي فتملاً الخندق بالماء، وقد جاءت مداخلها في مستوى مرتفع عن أرضيتها مما سهل عملية الاحتفاظ بالماء مدة طويلة، إلا أنها في الوقت الحالي تستعمل من قبل الأهالي كمطمورات لخزن بعض المحاصيل الزراعية، إضافة إلى استعمالها أماكن يلجأ إليها الناس في الصيف، هروبا من حرارة الجو، وهذا لما تتميز به من البرودة، والجو المنعش.

الخاتمة:

وبعد عرض ما جاء من آراء الدارسين لظاهرة القصبات في مناطق القورارة، ومقارنتها بالقرائن الأثرية التي وجدناها بعد الزيارة الميدانية لتلك المواقع، إضافة إلى معرفة الواقع المعاش من خلال مساءلة أهالي تلك القصور، استطعنا أن نخرج ببعض النتائج جملة في مايلي:

❖ إن القول باستعمال القصبات لتخزين المحصول خوفاً من نهب قطاع الطرق وغيرهم، له جانب من الحقيقة، غير أنه يعترض مع وجود كل المرافق الضرورية لحياة الأهالي (بئر، مسجد، مساكن) مما يجعلنا نحتمل أن هاته القصبات قد تمت تهيئتها لظروف استثنائية (تعرض القصر لهجوم خارجي) ولاحتوائها على جميع مقومات الحياة، فإنهم يستطيعون الصمود ومواجهة العدو لعدة أيام.

❖ أما الفرضية الثانية وهي كون القصبات عبارة عن النواة الأولى لإعمار تلك المناطق الصحراوية، فنعتمد فيه على الهجرات البشرية التي عرفت تلك المناطق من إقليم توات، فقد كان اللجوء إلى هذه الصحاري البعيدة بحثاً عن الأمن الذي فقدته في موطنها الأصلية، ومن تلك الأقوام تكون النسيج الاجتماعي للقصور (بربر، عرب، أفارقة ويهود)، وبالرغم من بعد المسافة عن الموطن الأصلي، غير أن هاجس الخوف من المجهول، أو من تكرار المآسي السابقة

عن مسيطراً عليها، وهو ما دفعهم إلى بناء مساكنهم بشكل الحصون، كما أن الحروب ورس التي قامت بين تلك الأقوام (للسيطرة على المكان) كان لها دور في ظهور القصبه بشكلها الدفاعي، وبعد استقرار الأوضاع الأمنية، وتزايد عدد السكان، كان لزاما عليهم الخروج من تلك القصبات، ليعمروا بجانب بساكنهم فكان ما يعرف الآن بعمارة القصر، التي جاءت على هيئة القرى الزراعية، وبهذا يكون عمران القصبه أسبق من عمران اقصر.

نمو السكان	نمو السكان
عمران المدينة ← ... عمران القصر ← عمران القصبه.....	

❖ أما ظاهرة صغر مداخل المخازن، التي تنتشر في كامل قصبات منطقة القورارة، فنرى أن التفسير الوحيد لها هو الزيادة في الحرص على المؤونة، الموجودة داخلها، فصغر المدخل حتما يعمل على إعاقة السارق، هذا فضلا على أن صغر المداخل يعمل على الاحتفاظ بقسط كبير من الرطوبة اللازمة لتفادي تلف المحاصيل الزراعية داخل تلك المغارات، وهذه التقنية تبين لنا مدى وعي إنسان المنطقة بالظروف الصحية لسلامة المحاصيل الزراعية.

❖ وبالنسبة لشكل القصبات الذي يغلب عليه الدائري، وحسب (إيشالييه) فهو محلي النشأة، وقد دام استعماله لمدة ثمانية قرون، ويرى معمرى مولود، أن استعمال الشكل المربع ذي الأبراج الركنية، لم يكن إلا بدءا من القرن 16م؛ وذلك بعد دخول السلاح الناري¹⁶.

فنرى أنه من الطبيعي أن يكون الشكل الدائري هو الشائع في تلك المناطق، وذلك للأسباب الجغرافية التي تتميز بها منطقة القورارة، وهو السبب في استدارة الجدار، وهي كون أن تلك العمائر بنيت على مرتفعات صخرية غير مهيأة، وبالنظر إلى بدائية أدوات العمل فإنه لم يتسنى للبناء تهيئة الصخرة قبل البناء عليها، ولهذا جاءت الأسوار منحنية، والدليل على ذلك هو تكرار الظاهرة في جدران البيوت، دون أن ننسى سهولة تنفيذ الشكل الدائري الذي يشبه الأكواخ المستديرة المنتشرة في إفريقيا، وهذا ما يؤيد فرضية انتقال النمط الثقافي مع الانتقال البشري.

وفي هذا يورد عبد القادر: (لقد كان الفن المعماري الأصيل لإفريقيا قبل الإسلام، هو البناء المستدير المغطاة سطوحه بالأخصاص والقش، في شكل هرمي لا أضلاع له، وربما يعود ابتداء ذلك الى عامل التكيف مع المناخ...، وهي نفس الطريقة الموجودة لدى سكان البوادي والواحات، في بلدان المغرب العربي)¹⁷.

ومع كل هذا تبقى القصور والقصبات في منطقة القورارة، شاهدة على إنسان استطاع أن يفقه واقع فعممر وفقه.

ملحق الصور:



(بناء الصور انطلاقا من الهضبة (القورارة)



قصبة بني مهلال



المزاغل في القصبات



الجسر الرابط بين القصبة والقصر



البئر في وسط القصبة



إحدى الابراج

هوامش البحث:

- 1 . ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، دار الحديث القاهرة، 2003، ص:376.
- 2 . Montagne R, Les Berbères et Le Makhzen dans le sud marocain, Paris 1930, p.347.
- 3 . HENRI.T, Kasbah Berbère de L'atlas et Oasis, ed des horizon, paris, sd, p.25.
- 4 . Meuniee. Dj ; Architecture et habitat de Dadis Maroc présaharienne, Librairie cklinkseik, Paris, sd, p.35
- 5 . Pietro-Laureaux, Les Ksours du Sahar Algerien, un exemple d'architecture globale ,sd p.02
- 6 . R. Capot-Rey, Grenniers Domestiques et Grenniers Fortifies au Sahara, Le Cas du Gourara,I.R.S,XIV,1956, p.139.
- 7 . Ibid, p.142
- 8 . Echallier, Op. Cit, P.20
- 9 . A.G.P-Martain, Les Oasis sahariennes ,Paris, challamel, 1908 p.35
- 10 . R-Capot-Rey, Op. Cit p.149
- 11 . Ibid, p.150

- 12 . بن عميرة (محمد)، دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، م.و. للكتاب، الجزائر، 1984، ص:20
- 13 نفسه، ص:185.
- 14 ابن خلدون (عبد الرحمان)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مصححة ومنقحة، للأبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، (ب-ت)، ص: 1582.
- 15 البكراوي (محمد بن عبد الكريم التمنيطي)، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة أبناء عبد الكريم المطارفة ادرار، ب-ت)، ص:04.
- 16.Mameri(m)etAugier(p);LeGourara,élémentd'étudeanthropologique,IRS,T.14,1956,p.255.
- 17 زبادية (عبد القادر)، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص، مؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص:52